سجين شيلون

للشاعر الانجليزى لورد بيرون

بقلم الاستاذ محمود الخفيف

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

— ٧ —

ذكرت أن أقرب الأخوين إلى مكانى تساقطت نفسه وذوى عوده ، وكذلك ذكرت أن قلبه القوى انصدع وانسرقت قوته عزفت نفسه عن الأكل وعافته ، ولم يك ذلك لما كان عليه من قبح ووحشية ، فقد ألفنا طعام الصيد ورضنا أنفسنا عليه .

أبدل ما كنا نشربه من لبن تجود به غنمات الجبل ، بماء أتوا به من الخندق ، وكان الخبز الذى يلقى إلينا على حال أحسسنا معها كأن دموع الموثقين البائسين قد سقته فالانته آلاف السنين ، منذ ألقى الانسان بنى جنسه أول مرة فى الأصفاد كما يفعل بضوارى الوحوش !

***

ولكن ما كان ليضيره ذلك أو ليضيرنا ، لم يكن ذلك ما أذاب قلبه وفت فى عضده . فقد كانت روح أخى من ذلك الطراز الذى تتسرب إليه برودة الموت حتى ولو كان فى قصر ، إذا حيل بينه وبين شعاب الجبال وجوانبه الحادرة . وليت شعرى لم أخفى الحقيقة وأوجل النطق بها ... لقد لفظ أخى أنفاسه

***

رأيته يموت ولكن واحسرتاه لم أستطع أن أسند رأسه ، لا ولم أستطع أن أمسك بيده وهى تموت ولا بعد أن همدت فيها الحياة ، لم أستطع شيئا من ذلك ولو أنى تنزيت فى الحديد وحاولت عبثا أن أفك السلاسل وأجعل أصفادى شطرين . لفظ أخى أنفاسه ، ففكوا سلاسله وحفروا له لحدا قليل العمق ، وقد جعلوه هكذا قريب القرار فى مثل تلك الأرض الباردة أرض ذلك القبو

***

ولقد توسلت إليهم أن يمنوا على بسلوة لنفسى فيدفنوا جثمانه فى بقعة يقع عليها ضوء النهار وهى فكرة سخيفة ، ولكنها أوحت إلى نفسى أن قلبه الذى فطر على الحرية لن يجد حتى فى ضجعة الموت راحة فى مثل ذلك السجن

***

وكان أولى بى أن أكفى نفسى عناء هذا التوسل ، فما أغنى عنى منهم شيئاً ، إذ ضحكوا فى برود ثم وسدوه وسدوا عليه حيث سجنوه ، وهناك رقد ذلك المخلوق الذى أجزلنا له الحب تحت أرض منبسطة لا ينبت فوقها عشب ، ترتكز فوقها السلاسل المفرغة والأغلال نصبا ملائما لذلك الاغتيال !

— ٨ —

ولكن الآخر ، ذلك الفتى الحبيب الذى كان يشبه الزهرة ، ذلك الذى أعززناه منذ أن رأت الوجود عيناه ، ذلك الذى كان يحمل صورة أمه فى وجه صبوح . ذلك الطفل الذى تحب فيه الطفولة جميعاً ، ذلك الذى كان أحب وأعز خيال إلى أبيه الشهير ، والذى أصبح فى السجن آخر مابقى لأعنى به ، والذى كنت من أجله أجهد أن أبقى على حشاشة نفسى ، عسى أن يقلل ذلك من شقائه وعسى أن تتاح له الحرية يوما ما ؛ أقول حتى ذلك الأخ أيضاً ، ذلك الأخ الذى ظل إلى ذلك الوقت محتفظا بروح ذاتية أو موحاة ، غلب على نفسه فى النهاية ورأيته يذبل كما تذبل الزهرة على غصنها يوما بعد يوم

***

يا إلهى ! إنه لما يبعث الرعب فى القلوب ، أن نرى الروح البشرية تنطلق مولية فى أية صورة وفى أى موقف ، ولقد رأيتها من قبل تنطلق فى دم مسفوح ، ورأيتها فى البحر الثائر تجاهد الموج المنتفخ القاذف ، ورأيت المضاجع المحتضرة مضاجع الذين أسرفوا على أنفسهم يشيع فيها الهذيان من شدة الهول ، رأيت ذلك كله وما حوى من صور مرعبة ، ولكن رزئى فى أخى كان فاجعة .

***

لم يصحب موته هول مما أسلفت ، وانما أسلم روحه مستيقنا غير معجل ، وتساقطت نفسه ومضى هادئا وادعا ، أكثر نعومه فى تحوله ، وأبرز جمالا فى ضعفه ؛ ذهب غير دامع المقلتين ولكنه عطوف رؤوف ، حزين على من خلفهم وراءه ؛ سار للموت وفى وجنتيه نضرة بدت كأنها تهزأ بالقبر ! ولقد ذهبت صبغتها فى رقة وهدوء كما يتلاشى فى السماء قوس الغمام ؛ سار وفى عينيه بريق يكاد ومضه يضىء ذلك القبو

***

مات لم أسمع له غمغمة ولا أنة تحسر على هذا الذى انتابه قبل أوانه . لم أسمع سوى كلمات قليلة عن حياة هى خير وأبقى ، واشارة طفيفة الى الأمل أراد بها أن يثيره فى نفسى اذ قد غرقت فى السكون ، وأحسست بفقدان روحى فى ذلك القفر الذى عظم عندى عن كل قفر .

وأخيرا توانت وتضاءلت تلك التنهدات التى كان يحاول كتمانها ، تلك التنهدات المنبعثة من هزال نفسه المتلاشية

* * *

أصخت بسمعى ، ولكنى لم أسمع شيئا ، فصرخت اذ ذهب الهلع بلبى ، فعدت فى وحشية المذعور ثم أدركت أنى صرخت عبثا ؛ ولكن هلعى ما كان لينهه بزجر ، لذلك عاودت الصراخ وأحسبنى سمعت صوتا ، وإذ ذاك فصمت سلسلتى فى وثبة قوية وأسرعت اليه ولكننى لم أجده !

وما فعلت سوى أن رحت أحدق فى تلك البقعة القاتمة ، وما أحسست سوى أنى مازلت حيا وأن رئتى تتنفسان ذلك الهواء الرطب اللعين هواء القبو .

وهكذا انكسرت تلك الحلقة التى كانت تصلنى باللانهاية ، والتى كانت تربطنى بتلك السلالة المضمحلة التى انحدرت منها ؛ انكسرت فى ذلك المكان المهلك تلك الحلقة الوحيدة آخر الحلقات وأعزها جميعا لدى . وبات أخواى أحدهما تحت الأرض والآخر فوقها وكلاهما لا ينبض فيه عرق

* * *

أخذت بيدى تلك اليد التى تدلت هامدة ، ولكن يدى واحسرتاه كانت مثلها في برودتها ، ولم أعد أجد فى نفسى القوة لأن أتحرك أو أناضل ، ولكنى على الرغم من ذلك أحسست أنى مازلت حيا ، وتملكنى ذلك الشعور المضطرم الذى لا يقر ، ذلك الشعور الذى يكون مبعثه ادراكنا أن الشيء الذى أولياه محبتنا لن يعود أبدا الى ما كان عليه . وليت شعرى لم عجزت عن أن أضع حدا لتلك الحياة ؟ لم يعد يربطنى بالأرض أمل . ولكن ظلت لى فيها عقيدتى وهي التى حالت دون أن أقتل نفسى .

— ٩ —

أما ما كان من أمرى بعد ذلك ، فلست أتبينه تماماً . لا أذكر سوى أنى فقدت شعورى أولا بالضوء ثم بالهواء ، وأخيراً بالظلمة نفسها . لم أعد أفكر فى شيء أو أحس شيئاً ، ووقفت حجراً بين الأحجار . كنت كالصخرة الجرداء يغشاها الضباب ، إذ لم يكن حولى سوى الفراغ والكآبة والظلام . لم يعد ثمة ليل ولا نهار ؛ حتى ولا ذلك النور البغيض نور القبو الذى كان ينفر منه بصرى الكليل ، لم يبق إلا الفراغ الذى فنى فيه الكون كله فلا أحس سواه ، والوجود الذى لا يرتبط بمكان فى معناه !

لم يعد ثمة سماء ولا أرض ، ولم يعد ثمة ثبوت ولا تحول ولا زمن ولا خير ولا شر . لم يكن هناك سوى السكون ، والتنفس الذى لا يبعث حركة فلا هو إلى الحياة ولا هو إلى الموت .

كنت فى بحر من الخمود الراكد تغشاه الظلمة ، لا تدرك له نهاية ، ولا يسمع فيه صوت ، ولا تحس فيه حركة !

— ١٠ —

طافت بعقلى بغتة بارقة من النور ؛ كانت غناء حلوا تغنى به طائر ، غناء انقطع ولكنه ما لبث أن عاد ؛ ولقد كان أجمل سجع سمعته الآذان ! طربت له أذناى حتى دارت عيناى تتبعان هذه المباغتة السارة ، فى تلك اللحظة لم تستطيعا أن تريا أنى حليف الشقاء ، ولكن حواسى عادت فى خطا كئيبة إلى طريقها التى ألفتها ، ورأيت جدران القبو وأرضه تدور فتلتف حولى فى بطء كما كانت من قبل ، ورأيت ذلك البصيص المنبعث من الشمس يزحف كما كان يزحف من قبل ؛ بيد أنى رأيت ذلك الطائر فى تلك الكوة التى دخل منها الشعاع يقف مشغوفاً أليفاً كما لو كان فوق شجرة ، بل أكثر ألفة مما لو كان هنالك . كان طائراً جميلا ذا جناحين أزرقين وغناء جم المعانى ؛ ولقد خيل إلى أنه تغنى بتلك المعانى جميعاً من أجلى ! وما وقعت عيناى من قبل على طائر مثله ولن تريا بعد شبيها له أبداً . وبدا لى كأنما كان يعوزه إلف كما كان يعوزنى إلف ، ولكنه لم يصل إلى نصف ما كنت فيه من وجد ووحشة . وكذلك بدا لى أنما قد جاء ليهبنى حبه ، على حين لم يبق لى من يهبنى ثانية مثل ذلك الحب . ولقد جعلتنى هذه البشرية المنبعثة من حافة القبو أشعر ثانية وأفكر ، ولست أدرى أكان أطلق سراحه حديثاً ، أم أنه كسر قفصه وجاء ليطل على قفصى ! ولكنى أيها الطائر الجميل وقد عرفت معنى الأسر لن أستطيع أن أريده لك !

وليت شعرى لعله زائر من الفردوس تنكر فى جناحين ! ذلك أنى كنت أفكر أحياناً أنه ربما كان روح أخى هبطت إلى . ولتغفر لى السماء تلك الفكرة ، تلك اللحظة التى جعلتنى أذرف الدمع وجعلتنى أبتسم ، ولكنه فى النهاية ولى بعيداً عنى ،

وإذن فقد كان من بنى الفناء ؛ عرفت ذلك حق المعرفة . وإلا فما كان ليذرنى هكذا فى وحدة أحسستها ضعفين : وحدة كنت فيها كما يكون الجسد فى أكفانه ، أو كما يكون السحاب المنعزل : ذلك السحاب الفريد الذى يتراءى فى اليوم الضاحى حينما تكون نواحى القبة صافية كلها فيبدو فى الجو كعبوس لا موجب لظهوره والسموات طلقة والأرض فى بهجة

— ١١ —

طرأ على حالى نوع من التغير إذ أصبح آسرى ذوى رحمة ؛ ولست أدرى ماذا جعلهم كذلك وقد ألفوا مناظر الشقاء ، ولكن ذلك ماحدث . بقيت سلسلتى المكسورة منفصمة الحلقات ، وكانت الحرية عندى أن أتجول فى صومعتى من جانب إلى جانب ، وأن أقطعها طولا وعرضاً ، وأن أطأ أرجاءها جميعاً ، وأدوز حول كل عمود ، ثم أعود إلى حيث بدأت ، لا أتجنب وأنا أطأ الأرض بقدمى إلا ذينك القبرين العاريين : قبرى أخوى . ذلك أنى كنت اذا ظننت أن وطأة على غير قصد منى قد أهانت مضجعهما الخافض ، ينبعث نفسى لاهثاً كثيفاً ، وينقلب فؤادى المتحطم ضريراً عليلا .

— ١٢ —

تسلقت الحائط ولكنى ما أردت الهروب . فقد غال الردى كل من كانوا يحبونى من البشر ، ومن ثم صارت الارض كلها عندى سجنا أكثر سعة مما أنا فيه ، لم يكن لى ولد ولا والد ولا ذو قربى ، ولا شريك فيما الاقى من شقاء .

ذكرت ذلك فاغتبطت به لأن فكرى فى هؤلاء قد أورثنى الجنون ، ولكنى كنت أتطلع إلى تسلق الجدار حتى النوافذ التى تعترضها القضبان . كما كنت أتطلع إلى أن أصوب بصرى مرة أخرى فى هيام إلى تلك الجبال الشاهقة

— ١٣ —

رأيتها لما تزل على ما كانت عليه ، فلم تنل منها يد التغيير كما نالت منى فى الاغلال ؛ ورأيت الثلج الذى يكلل هاماتها منذ آلاف السنين كما رأيت البحيرة الواسعة الطويلة أسفل منها ، ونهر الرون الازرق فى أشد فيضه ؛ وسمعت جارف السيل يتلاطم ويندفق فوق الصخر المتشقق والجذوع المتحطمة ؛ وأخذت عيناى المدينة الثائية البيضاء المنازل ، كما لمحت القلاع التى تفوقها ابيضاضاً تجرى مسرعة ؛ ثم وقع بصرى على جزيرة صغيرة تراءت حتى لى أنا باسمة ، ولم يلح سواها أمام ناظرى ؛ جزيرة صغيرة خضراء ظهرت كأنما لا يزيد عرضها على ذلك إلا قليلا ، قامت فيها ثلاث شجرات باسقات ، وكانت تهب عليها نسمات الجبل وتجرى بجوارها المياه ، كما كانت تنمو فوقها زهرات جميلة اللون عاطرة الانفاس .

ورأيت فيما رأيت السمك يسبح إلى جدران السجن ؛ ولقد بدا للعين مرحا : وحداته وجماعاته ؛ وأبصرت النسر يركب متن الريح الهائجة ، ويخيل إلى أني لم أره من قبل فى مثل تلك السرعة . وعندئذ اخضلت عيناى بدمع جديد وتبلبل خاطرى ، ووددت لو أنى لم أنطلق من تلك السلاسل ، ولما نزلت أحسست كأن الظلمة فى مأواى الكدر تقع على كأنها حمل ثقيل ؛ كانت كأنها القبر ينطبق على من جهدنا فى خلاصه ، وأحس بصرى وقد انقلب الى هكذا محزونا كأنه يطلب راحة كراحة القبر .

— ١٤ —

ولست أدرى كم لبثت بعدها فى ذلك القبو ، ربما كانت شهورا أو أعواما أو أياما . لم أخص لها عددا ولم ألق اليها بالا . ولم يك ثمة من أمل يرفع عينى ويمسح عنهما القذى المحزن . وأخيرا أقبل الرجال ليطلقونى من الأسر ، فلم أعن أن أعرف ماسبب هذا ولا حفلت أين أذهب ، فلقد تساوى فى النهاية عندى الفكاك والقيد . وتعلمت أن أصالح على اليأس نفسى . ولذلك حين أقبلوا يطلقونى وحين ألقيت جميع السلاسل جانبا ، أحسست أن تلك الجدران السميكة قد صارت لى معتكفا وأصبحت على وقفا ؛ وكأنى شعرت نصف شعور ساعتئذ أنهم أتوا ينتزعونى من وطن ثان . لقد اتصلت بينى وبين العناكب أسباب الصداقة ، وكنت أراقب عملها الدائب ، كما كنت أرى الجرذان فى نور القمر . وليت شعرى ماذا يدعونى أن أحس أنى دون هؤلاء جميعا ؟ لقد صرنا ألافا جمعتهم وحدة المكان

وكنت أنا فيهم ملك الجميع ، ولى الحول أن أقتل أنى شئت ! ولكنا تعلمنا أن نعيش معا هادئين ، وذلك لعمرى من عجيب الأمور ! فى ذلك السجن توثقت الألفة بينى وبين الأغلال ذاتها . وهكذا ينتهى بنا طول الاعتياد إلى ما نصير اليه فهأنذا الذى لا قيت ما لا قيت قد تنهدت حينما عادت حريتى إلى !

الضيف